

## أثنتى بعينه

كان عامر بن معاوية الجون الكندى أبو فاطمة من أركان دولة حجر بن الحارث - فهو فارس باسل، وأمير شهم شريف، يؤلف قلوب بنى أسد بكرمه وحلمه، ويشد دولة ابن عمه حجر بشجاعته. ولهذا كان الملك حجر يحرص كل الحرص على مودته وإخلاصه، ويعتمد عليه فيما كان يخشى وقوعه من الكوارث بدولته، فقد كانت الكوارث تخفق فى جو بلاده، كما تخفق أجنحة الخفافيش فى الظلام.

كان بنو أسد عند ذلك يتحركون للوثوب بملكهم حجر لأنهم أحسوا ثقل وطأته عليهم، وشجعهم على ذلك ما سمعوه من اضطراب أمر أبيه الملك الحارث بالحيرة واشتغاله بمحاربة منافسه القديم المنذر بن ماء السماء.

فلما نزع عامر بأهله فى جنح الليل، وباعد بلاد بنى أسد، أحس حجر بأن دعامة قوية من دعائم ملكه زالت من موضعها، ولم يدرك ماذا حملة على ذلك النزوح، وأراد أن يعرف السبب الذى دعاه إلى المبعدة، فأرسل الرسل إليه يستدعيه، وكتب إليه الكتب يستعيد مقامه فى جواره؛ فكان عامر يعتذر ويمتنع فى إصرار عجيب.

ولكن السر في نزوحه لم يبق طويلاً في أطباق الخفاء، فذاعت منه ذائعة، ثم تردد النبأ خفية في المجالس، ولم يلبث أن بلغ آذان حجر، وكان وقعه عليه أليماً. علم حُجر أن ابن عمه قد هرب خوفاً على شرفه من اعتداء ولده الحبيب الفتى الشاعر امرئ القيس. علم أن ابن عمه الفارس الشجاع قد آثر أن يبعد عن موطنه وهو يضرر موجدة لم يقدر على الإبانة عنها، يريد أن يفر بشرفه سالماً، قبل أن يكون الفتى الشاعر سبباً في فضيحته بين العرب، أو عاملاً على إثارة العداوة بينه وبين ابن عمه الملك حُجر من أجل المحافظة على عرضه.

وكانت غضبة حجر على ولده عظيمة عندما عرف ذلك السر، ولكن حزنه على مرضه، وجزعه من خوف فقدته لم يدع له مجالاً لإظهار غضبه عليه، ولما شفى امرؤ القيس، نسي أبوه الحانق ما ثار في نفسه من الموجدة عليه، منذ امتلأ قلبه بالفرح لشفاء أعز أبنائه وأقربهم إلى قلبه.

وقام امرؤ القيس من مرضه الذي أصابه عقب رحيل ابنة عمه، وقد تغيرت نفسه، وتبدلت خلائقه حتى كأنها بعثت بعثاً جديداً، قام الفتى من الحمى ورأسه مفعم بالثورة؛ كان من قبل مرضه يحب اللهو، ويستخفه المرح، وينشط إلى الصيد، ويرتاح إلى المعابثة والمزح، ويستفزه الطرب أحياناً، فيتغنى بالشعر ويشبب بمحاسن النساء، وتدفعه نشوة الخمر أحياناً إلى كثير من الإغراق في القول،

ولكنه كان بعد كل ذلك يضمّر في قرارة قلبه حبًّا واحدًا، ويحرص في أعماق نفسه على صورة واحدة جعل صدره لها معبداً: ذلك هو حب فاطمة.

كان يعبث أحياناً بذكر غيرها، ولكنه كان لا يذكرها في شعره إلا تلميحاً. وكان يلهو أحياناً بالتماجن مع فتيات بنى أسد، غير عابئ أن يغضب عليه أحد من أهلن، ولكنه كان لا يجروء على أن ينطق بكلمة قد تغضب فاطمة.

فلما وقع منه ما وقع يوم دارة جلجل، ورحلت فاطمة عن منازلها كانت الصدمة أعنف من أن يقوى عليها شاعر مرهف الحس مثله. فدهشته وأردته إلى هوة لم يستطع أن يتمالك نفسه فيها، وقام من مرضه الذى أصابه وقد ملأ اليأس قلبه. اليأس من هوى مثل هوى فاطمة. فلم يبق له إلا العبث الذى كان يعبثه بسواها.

وأصبح الشراب الذى كان يتخذه آلة لطربه ومنشطاً على سمره ولهوه، مُسكرًا يقبل عليه لكى يغرق فيه يأسه وهمّه، وليهرب فى نسيانه وهذيانه وخدره من حقائق حياته ومن خذلانه.

وضاقت صدور بنى أسد بما كان يصنعه الفتى السادر فى عبثه. كان يتعرض لفتياتهم ويرصد لنسائهم، لا يبالي الضعيف منهم فيعلن تعرضه لحرمة ويدارى القوى، ولكنه يتخذ من حسنه وشبابه وجاهه أسباباً للتدسس سرّاً إلى الغواية والفتنة فى عرضه. فتحدث الناس فى مجالسهم بما يحدثه الفتى فيهم، وتحركت

الحفيظة تحت ستار الخفاء، خشية من غضبة الملك حجر الذى عودهم شدة البطش ووبال التنكيل. فكان خطرهما أعظم وسريانها أقوى وأسرع.

اجتمع بنو أسد فى شعب من شعاب أرضهم فى ليلة صافية من ليالى البدر. وكان ظاهر أمرهم أنهم ينظرون فى جمع ما طلبه الملك حجر منهم من أموال وجنود يمد بها أباه فى الحيرة وهو فى نضاله العنيف مع منافسه المنذر بن ماء السماء؛ ولكنهم كانوا يلتمسون فى اجتماعهم وجوه الحيل للوثوب به وإفشاء سره إلى عدوه وعدو أبيه وإشاعة قالة السوء عنه وعن أهله وقومه وبنيه.

ولما انعقد الجمع واطمأن، ووقف منهم حراسُ ربيثة عند أطراف الشعب الذى اتخذه فى تلك الليلة مجمعا، وقف سيدهم عمرو بن مسعود، فنظر القوم إليه فى صمت وإكبار، وكان رجلا نحيفا رقيق البشرة أبيض اللون فى صفرة، وكانت لحيقته البيضاء تكسب وجهه روعة كأنها الإطار الفضى حول صورة رفيقة الألوان وتكلم بنبرات هادئة واضحة فى صوت مطمئن منخفض حتى قال: «لو علمت أن الغدر ينجيكم ما نصحتكم به ولا وافقتكم عليه، فما بالكم وهو يوقع بكم النكبة؟».

فقام رجل من أقصى المجلس ضئيل الجسم، أسمر اللون كأنه يثب وثوباً وهو قائم، فالتفت الجمع إليه، وتبدلت نظرتهم من الإكبار إلى التحفز والغضب، ولمس الرجل عُثنونه الأسود بيده،

وأجال في القوم نظرة خاطفة مضطربة ثم بدأ يتكلم مسرعاً بصوت حاد فيه نغمة الحنق حتى قال: «وعلام نصبر بعد اليوم؟ أبعدهتكم أعراضنا وإشاعة الفساد بين ظهرانينا نتكلم عن الغدر وعن النكبة؟ وأي نكبة أشد من أن يذهب الرجل منكم إلى التماس رزقه فلا يدري من يكون في فراش أهله؟ هذا امرؤ القيس بن حجر في جماعته، لا تمضي ليلة بغير أن يحدثوا حدثاً من الخنا يتحدثون به في أسمارهم، وكأنكم قد قنعتهم بأن يخلفكم هذا الفتى الجميل على حرملك، ويلقى على فراشكم بنسله ينسبه إليكم؟».

فتحرك الجلوس حانقين في مجالسهم وصاحوا بالرجل: «حسبك يا عبيد! كفاك سباً لنا يا بن الأبرص!».

فلم يعبأ الرجل بمقاطعتهم، ومضى في قوله ممعناً في تهكمه اللاذع قائلاً: «لئن كنتم تشعرون من أنفسكم العجز والضعف عن حماية أعراضكم من هذا العار فدونكم الأرض واسعة، فاضربوا فيها، واخرجوا من مقامكم الذليل كما خرج عامر بن معاوية الجون يلتمس النجاة بأهله من المعرة، أما أنا فوحق الأقيصر ومناة، لا بقيت بعد اليوم على ما ترضون به من الهوان».

ثم جلس في عنف وهو لا ينظر في وجه أحد ممن حوله. وساد سكون شامل حيناً ليس بالقصير، ثم تردد القوم وجعلوا يتهامون وينظرون إلى عمرو بن مسعود ينتظرون جوابه. وقام الشيخ بعد حين يتكئ على عصاه في بطة، فسكنت الأنفاس مرة أخرى، واجتمعت

الأنظار عند وجهه، فمر الرجل بيميناه على جبينه كأنه يمسح عنه العرق، ثم قال بصوته المطمئن: «لقد أفحشن ابن الأبرص وغلبه الحقد على صاحبه امرئ القيس فامرؤ القيس رجل شاعر...».

فنهض عبيدٌ غاضباً ولم يمهل الشيخ حتى يتم حديثه، وصاح يقاطعه فقال: «إذا كان الشيخ يعجبه الشعر، فإني مسمعه شيئاً من قول امرئ القيس».

ثم اندفع ينشد أبياتاً ويتغنى بها، ويمسك ألفاظها ويدس فيها نبرات التهكم والسخرية، فقال:

سُموت إليها بعد ما نام أهلها  
فقلت: سباك الله! إنك فاضحى  
فقلت: يمين الله أبرح قاعداً  
حلفت لها بالله حلفة فاجر  
فلما تنازعنا الحديث وأساحت  
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا  
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعليها  
يغط غطيظ البكر شد خناقه  
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى  
أيقتلنى أنى شغفت فؤادها  
وقد علمت سلمى وإن كان بعليها

سُموت حباب الماء حالا على حال  
ألست ترى السُمَار والناس أحوالى  
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى  
لناموا فما إن من حديث ولا صال  
هصرت بغصن نى شماريخ ميال  
ورضت فذلت صعبة أى إذلال  
عليه القتام سىء الظن والبال  
ليقتلنى والمرء ليس بقتال  
ومسنونة زرق كأنياب أغوال  
كما شغف المهنوءة الرجل الطالى  
بأن الفتى يهذى وليس بفعال..

ثم وقف عن الكلام ونظر في وجوه القوم واطمأن إلى ما بدا عليها من الحقد والغضب، ثم نظر إلى ابن مسعود وقال يخاطبه: «أرى الشيخ قد أعجبه القول وطرب له ولأن قلبه للحديث الحلو وإلا فما بالى أراه صامتاً؟».

ونظر القوم إلى ابن مسعود، فرأوه مطرفاً يعبث بالأرض بعصاه وهو واجم فسرت فيهم حركة قلقة وأخذت أصواتهم تعلو في الجدل، ثم قام رجل كان جالساً إلى جوار ابن الأبرص فقال: «صدق ابن عمى عبيد، أعلى مثل هذا الهوان نصبر؟».

فزادت حركة القوم وعلت أصواتهم، ثم قام كهل حسن الوجه مديد القامة قوى البنيان، وتكلم في صوت مجلجل فقال: «صدق المهاجر بن خدّاش، فما ينبغي الصبر على مثل هذا».

فتعالت الأصوات من جوانب الجمع صائحة: «صدقت يا قبيصة بن نعيم! صدقت!».

ولم يجد عمرو بن مسعود بدءاً من القول بعد أن رأى قومه يكادون يفلتون من يده، وتحرك للوقوف، ولكن الضجة لم تسكن إلا بعد حين، ورثقت على وجوه القوم سحب من الحنق والضجر عندما بدأ حديثه في لفظ متردد: «لقد علمتم يا معشر بني أسد أنني لا أسعى إلا في خيركم. فدعوني ألتمس من هذا الأمر مخرجاً، وسيكون مني ما ترضون».

ثم التفت إلى المهاجر بن خدّاش وقبيصة بن نعيم فقال لهما: «هذا أمر لا بد فيه من المشاورة والتدبير فهلما معي لنتم الحديث». ثم قام ذاهباً إلى بيته وسار وراءه الرجلان، وأخذ الجمع ينصرف مثنى وثلاث ورباع وهم في جدال حائق ولم يبق غير ابن الأبرص في جماعة يحدثهم في ناحية من الشعب حتى مضى صدر من الليل، وكان كل حديثه عن امرئ القيس وشعره وعن قصصه الماجنة مع فتيات بني أسد.

كان حجر في مجلسه في تلك الليلة، فأتى إليه رجل من عيونه الذين كان يبتهم في رعيته ليستطلعوا له أنباءهم، فوقف إلى جواره حيناً يحدثه في همس وهو يصغى إليه في اهتمام. وتغير مظهره في أثناء ذلك، فعراه اضطراب وبدا عليه الغضب ثم نظر إلى الرجل وقال: «ولا يزالون هناك؟» فقال الرجل: «بل انصرفوا ولم يبق غير عبيد في بعض أصحابه».

فصرّ حجر بأسنانه غيظاً واسود وجهه وقال وكأنه يخاطب نفسه: «ذلك الشعبان المتلوى!».

ثم نظر إلى الرجل مرة أخرى وقال: «وأين رأيت امرأ القيس مع أصحابه؟».

فقال الرجل: «في شعب المقرأة».

فنهض حجر واقفاً وأشار إلى الرجل أن يسير معه، وخرج إلى الفضاء يسير في خطوات واسعة متعجلة. فأفضى بهما السير

بعد حين إلى جانب واد قريب كثير الشجر من السمُر والضال، يجرى فى بطنه جدول دقيق، يخر من عين فى جانبه الصخرى. فوقف الرجل فى احتراس وأشار إلى حجر هامسًا: «هناك عند العين».

فأشار حجر إليه أن يقف حيث هو، ثم سار فى خفة فى ظل الصخور حتى اقترب من العين، فوقف تحت حنية من الصخر لا يراه منها أحد، ورأى هناك ما كان يود أن يراه. رأى جمعًا من الفتيان جالسين حول فتاة خليعة، من فتيات كن لا ينتسبن فى قبيلة، بل يهمن على وجوههن بين القبائل يتسقطن العيش فى منادمة الفتيان وتحمل عبثهم ومشاركتهم فى مجونهم وفجورهم. وأرهف أذنيه ليسمع ما يدور بينهم من الحديث، فحمل النسيم إليه أصوات الضحك والمزاح، وسمع بينها صوت ولده امرئ القيس وهو يضحك فى فتور الخمر، أو يرسل فكاهة من فكاهاته الصاخبة يضحك بها الجمع، فضاقت صدره بأنفاسه، وهم أن يذهب نحو الفتيان ليبيطش بهم فى غضبه، وليبيطش بولده الماجن بينهم، ولكنه لم يكد يسير خطوة حتى سمع ضجة عالية وأصواتًا تنادى ولده فى صخب مضطرب لينشدهم شيئًا من شعره. وسمع صوت تابعه الوفى ربيعة بن عمرو يراجعهم، فوقف متعجبًا من وجوده بينهم وانتظر ليرى ما يكون منه.

وقف ربيعة حتى اقترب من امرئ القيس وهمس فى أذنه بكلمات، وأخذ بيده يجذبه كأنه يريد أن يذهب به، ولكن الفتيان

كانوا قد ذهبوا فى شعاب الخمر، وضلت أحلامهم، فحملوا على ربعة وهم يتمايلون، وجعلوا يجذبونه ويصيحون به أن يجلس أو أن يذهب عنهم، فقد برموا به وضجروا من سوء صحبته.

وضحك امرؤ القيس ضحكة عالية، وجذب ذراعه من صديقه وهو يتمايل، ودفعه بعيداً عنه قائلاً فى لفظ متلعثم: «إليك عنى، واكفف اليوم نصائحك. فلقد أصبحت ثقيلاً».

فخجل ربعة وغضب مما لاقاه به الفتيان، وانصرف حانقاً، وضحكات السخرية تشييعه، وقد عزم فى نفسه ألا يصاحب امرؤ القيس بعد اليوم. وما كاد يسير خطوات حتى لاحت له يد تشير إليه من جانب الوادى، ففزع خوفاً من أن يكون ذلك عدواً يريد أن يهيم به، فارتد إلى الوراء قابضاً على سيفه، ثم نظر إلى الشخص الذى بدا من الظل، فما راعه إلا أن يرى الملك حجراً نفسه وهو أسود الوجه مختلج الأعضاء من شدة الغضب. فذهب إليه ووقف إلى جواره صامتاً، وعند ذلك كان امرؤ القيس قد وقف بين أصحابه وهم يتصايحون به، ثم أخذ يتغنى لهم بأبيات من شعره، وما كاد يبدأ حتى خشعت أصواتهم إلا همهمة الإعجاب وصرخة الطرب بين حين وحين.

بدأ امرؤ القيس فقال وقد ظهر فى صوته رنين من الحنين والحزن:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل      بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها      لما نسجتها من جنوب وشمال  
ترى بعرا الأرام فى عرصاتها      وقيعانها كأنه حب فلفل

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا      لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٍ حَنْظَلٍ  
وَقَوْفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ      يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَىٌّ وَتَجَمَّلِ  
وَأَنْ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا      وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعْوَلٍ  
فَفَاضَتْ دُمُوعَ الْعَيْنِ مَنَى صَبَابَةً      عَلَى النُّحْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي

فتذكر ربيعة عندما سمع هذا الموقف الذي كاد الفتى يهلك فيه في آثار فاطمة وهي مرتحلة. وتذكر حزنه وبكاءه، ووقوعه خائراً عند شجيرات السمر، وتذكر كيف كان هو يعزيه ويطلب إليه أن يتجلد ويتجمل، وينصحه ألا يهلك نفسه أسى. ولم يملك الرجل أن يذرف دموعاً من الإشفاق على صديقه المسكين الذي يهوى مع نفسه الثوارة إلى حيث لا يستطيع أحد نجدته.

ولما بلغ امرؤ القيس ذلك القول صاح به أحد أصحابه وقد غلبه السكر فقال: «دعنا من هذه الدموع يا جندح! فما نحن هنا للبكاء». وكان الكلمة وقعت موقع الرضا من إخوانه، فردوها وصاحوا بامرؤ القيس في ألفاظ فاترة من أثر الخمر، يطلبون منه أن يعدل إلى نعمة أخرى أكثر إيناساً وبشراً.

فوقف امرؤ القيس لحظة عن الإنشاد، ثم ضحك ضحكة عالية وقال لأصحابه: إذن فاسمعوا:

ويومٍ عقرت للعذارى مطيئتي      فيما عجباً من رحلها المتحمّل  
فظل العذارى يرتمين بلحمها      وشحم كهداب الدمقس المقتل  
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة      فقالت: لك الويلات إنك مُرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً      عقرت بعيرى يامراً القيس فانزل  
 فقلت لها سيرى وأرنى زمامه      ولا تُبعدينى من جناك المعلل  
 فعلت عند ذلك صيحة من الفتیان، وجعلوا يرددون بيته فى  
 تعلثم واسترخاء، ونظر ربیعة إلى حجر فوجده يكاد ينفجر من  
 الغضب. ولكنه أشار إليه بالصمت يريد أن يرى مدى قول ولده  
 الماجن ومضى امرؤ القيس يقول:

وبیضة خدر لا يرام خباؤها      تمتعت من لهو بها غير مُعجل  
 تجاوزت حراساً وأهوال معشر      على حراساً لو يُسرون مقتلى  
 إذا ما الثريا فى السماء تعرضت      تعرض أثناء الوشاح المفصل  
 فجئت وقد نضت لنوم ثيابها      لدى الستر إلا لبسة المتفضل  
 فقالت يمين الله ما لك حيلة      وما إن أرى عنك الغواية تنجلى  
 وهنا عادت الضجة إلى مثل ما كانت عليه، وجعل الفتیان  
 يكررون الأبيات فى استرخاء من ملكت عليهم الخمر ألسنتهم.  
 بعد لحظة استمر الفتى فى إنشاده:

خرجت بها نمشى تجر وراءنا      على أثرينا ذيل مرط مرجل  
 فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى      بنا بطن حقف ذى قفاف عققل  
 هصرت بفودى رأسها فتمايلت      على هضم الكشح رياً المخلخل  
 إذا التفتت نحوى تضرع ريحها      نسيم الصبا هبت برياً القرنفل  
 مهفهفة بيضاء غير مفاضة      ترائبها مصقولة كالسجنجل

فعادت ضجة الفتیان أشد مما كانت، وجعلوا يرددون أبياته  
ويتصايحون ويستعيدونه الإنشاد.

ولم يطق حجر الصبر بعد ذلك، فقبض على سيفه وسار مسرعاً  
نحو الجمع وربيعة فى أثره يريد أن يرجعه، والرجل كالفحل  
الهائج لا يلويه الرسن.

فلما بلغ دائرة الفتیان ووقعت أنظارهم عليه وقفوا وجلين  
وهم يتمايلون. فصاح بهم صيحة مروعة قائلاً:

«تعساً لكم أيها الفجرة، زيرة نساء ورُضاء زق!».

ثم جرد سيفه هاجماً عليهم جميعاً وهم يترنحون، ويقع بعضهم  
على بعض ولكن امرأ القيس وقف متحدياً وكأن السكر قد ذهب عنه،  
فلم يتمايل ولم يفزع، بل نظر إلى أبيه فى وقاحة وجراءة لم يسبق له  
مثلها، وقال بلسان معوج: «ماذا تريد منا أيها الشيخ؟».

فرفع حجر يده بالسيف يريد أن يهوى به على رأس الفتى،  
فأسرع ربيعة وقبض على يمينه وقال يريد أن يهدئه: «ما كان لك  
أن تفعل ذلك بيدك».

فنظر إليه حجر ولا يزال يختلج من الغضب، ولكنه أغمد سيفه  
ونظر إلى ولده وقال بصوت يقطر السم: «أهذا أنت أيها الصعلوك  
الذنئىء، تمضى فى مثل هؤلاء وتجعل من نفسك ضحكة لهم  
يتخذونك ملهاة تنشدهم أحاديث دعارتك؟ أهذا أنت أيها الفاسق  
تتغنى بأخبار جنائياتك وجرائمك؟».

وكان حجر على وشك أن يبدأ حملة أخرى من تقرّيعه، ولكن الألفاظ وقفت على شفّتيه، إذ سمع ولده يضحك ضحكة عالية ويقول له في لهجة الساخر لألفاظ ملتوية: «إذًا لم يعجبك قولي؟ إنك لا تستطيع أن تهتز إلا لتلك الدماء التي تسفكها».

ثم مضى يترنح ماضيًا في أثر أصحابه، فأسرع حجر إليه وضربه بيده على قفاه ضربة ألقته على الأرض صريعًا، وعاد يجرّد سيفه للإجهاز عليه، فأدركه ربّيعة مرة أخرى وأعاد عليه قوله الأول: «لا ينبغي لك أن تفعل ذلك بيدك».

فقال له حجر محنقًا: «إذًا تفعل ذلك أنت. اقتله واثنتي بعينيهِ الوقحتين اللتين تحمّلان في».

ومضى مسرعًا لا يكاد يرى مواقع أقدامه من شدة الغضب.

\* \* \*